مقدمة

شغلت مسائل الشرق الادنى اذهان الساسة وقراء الصحف واقلق محبي السلام ما شجر من الخلاف بين الترك واليونان مما دعا الفريقين الى امتشاق الحسام وبعثت المسئلة الشرقية من مرقدها فكان لا بد من كتاب يجمع بين دفتيه ـ ولو بهيئة مختصرة ـ تاريخ تطور تلك المشكلة الدولية الهامة من بدء نشأتها الى تاريخ تحرير هذه الاسطر وهذا ما نرجو ان نكون وفقنا اليه بعرض الصحف القليلة القادمة بين أيدي القراء الكرام

يونيو سنة ١٩٢١

obeikandl.com

كلمة عامة

في المسئلة الشرقية [1]

ما هي المسئلة الشرقية

« اذا ذكروا المسئلة الشرقية ارادوا بها حال المملكة العثمانية بالنظر الى مصالحهم او مطامعهم وقد يريدون بها الدردنيل خاصة وهو قلب المملكة العثمانية . وقد مضى قرنان وهم يختلقون الاسباب لتمزيقها ـ ليس لانها اسلامية وهم مسيحيون وانما يريدون الفتح والتغلب على دولة غريبة عنهم لغة وخلقاً وديناً وهم يرون فرقاً عظيما بين الغرب والشرق من كل وجه . فالغرب عنوان النشاط والحياة والعمل والشرق عنوان الهدوء والسكون والفاصل بين الامتين بحر الدردنيل ويعتقدون ان تلك الدولة تجاوزت الشيخوخة وآن انحلالها فكل دولة تطلب حقها من تلك الغنيمة ويتذرعون الى ذلك غالباً باسباب دينية فيزعمون انهم يريدون حماية المسيحيين في الشرق او مقاصة بعض الحكام العثمانيين لانهم تعدوا على مصالحهم التجارية او نحو ذلك مما قد يكون صحيحاً في بعض الاحوال ولكنه ليس الغرض الحقيقي لذلك التحرش وانما هو استضعاف الدولة العثمانية والطمع ببلادها الخصبة . ولو رأوا حجة غير هذه لاحتجوا بها ـ فلما حمل بونابرت على مصر كان من جملة اسباب حملته حماية المسلمين !

« وقد تقلبت المسئلة الشرقية في اثناء هذا التمدن على اوجه كثيرة ولا سيما بعد حروب الدولة العثمانية مع روسيا وبما ان الدولة العثمانية اسلامية صار المفهوم من المسئلة الشرقية المسئلة الاسلامية وعند ذلك تدخل ايران في جملتها ولكن الاكثرين

---

(١) يراد بالمسئلة الشرقية بمعناها العام النزاع الذي دار بين الشرق والغرب في جميع العصور والادوار التاريخية فيشمل حملات الفرس واليونان وحروب الرومان والعرب والحروب الصليبية والنزاع بين المسلمين والاسبانيول ثم بين كل دولة من دول أوربا الحديثة ودول الشرق فيدخل فيه الخلاف بين تركيا ودول أوربا وبينهن وبين فارس والصين وكذا اختلافهن مع اليابان بسبب مطامعهن في الشرق الاقصى . على أن موضوع هذا الكتاب قاصر على المسألة الشرقية العثمانية أو التركية دون سواها

يريدون بها الدولة العثمانية خاصة . ولم يختلفوا في وجوب ازالتها وانما اختلفوا فيمن يتولى الزعامة في هذا النزاع ومن منهم ينال حصة الاسد من هذه الغنيمة وعندهم ان هذه المسألة لا تختص بامة من امهم بل هي تهم اوربا برمتها — تهم روسيا لانها في طريقها الى البحر المتوسط وتهم انكلترة لانها معترضة بينها وبين املاكها في آسيا وتهم النمسا لانها عثرة في طريق مطامعها البلقانية وتهم فرنسا لرغبتها في مد تجارتها في افريقية وتهم سائر الدول بسبب ما بينها من التحالف . فكأن الدردنيل حلق اوربا والراية العثمانية حسكة في ذلك الحلق

« وعند التخصيص فانهم يعدون الدردنيل قلب الشرق او رأسه ولا تحل المسألة الشرقية الا باحتلاله والخلاف في من يحتله منهم

« وقد سعوا في حل هذه المسألة من وجوه كثيرة في جملتها اقتسام المملكة العثمانية فيما بينهم وقد وضعوا لذلك خرائط مختلفة لم يطل اختلافهم فيها وانما اختلفوا على الدردنيل وما يحدق به وهو حصة الاسد . واذا تدبرت ما دار بهذا الشأن وتأملت القرائن المحيطة بتاريخ هذه المسألة رأيت انكلترة أقل الدول رغبة في حل هذه الدولة وروسيا أشدها رغبة في حلها عملاً بوصية بطرس الاكبر الشهيرة » (١)

و « اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول اوربا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة اخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في اوربا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أي مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بامر الاسلام وبين الدول المسيحية . الا ان هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماماً لان الدول التي تنازع الدولة العلية وجودها لا تعاديها باسم الدين فقط بل في الغالب تعاديها طمعاً في نوال شيء من أملاكها . وقد ارانا التاريخ احوالا كثيرة لم يستعمل فيها الدين الا سلاحاً أو وسيلة لنوال غرض جوهري فهو ستار تختفي وراءه أغراض شتى وأطماع مختلفة . والذي يراجع تاريخ الدولة العلية ويقلب صحائف امورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها اي أنه منذ وطأت أقدام الترك ثرى اوربا واسسوا دولتهم الفخمة قام بينهم وبين بعض الدول الاوربية النزاع

(١) المرحوم جرجي بك زيدان

الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك في اوربا اخذت بعض الدول على عهدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على اخراجها من هاته القارة » (١)

و « ليست حقيقة المسئلة الشرقية البحث عن الوقت الذي يتقلص فيه ظل الاتراك عن آخر املاكهم في قارة أوربا وانما الحقيقة التي يبحث عنها هي من ذا الذي يخلفهم في القسطنطينية والبوسفور والدردنيل » (٢)

ولما كان ضعف الدولة العثمانية هو السبب في ظهور المسئلة الشرقية وتطورها وجب علينا ان نلم باسباب الضعف الماماً فنقول :

اسباب ضعف الدولة العثمانية

﴿ تمهيد ﴾ يضيق الكاتب ذرعاً اذا هو أراد استقصاء البحث في علل انحطاط الدولة العثمانية وتدهورها . وانما نقول الدولة العثمانية ولا نقول الامم العثمانية لان تلك الامم التي استظلت براية الهلال لا تزال على ما كانت عليه ولم يصبها وهن أو ضعف وهي عنصر قوي من العناصر الحية الخالدة الذي يبقى ولا يفنى وان أصاب دولته ضعف أو تولاها خمول . نعم لا يزال الترك والعرب والارمن والاكراد والتركمان وغيرهم على ما كانوا عليه تقريباً من صلابة العود وسمو الاخلاق الفاضلة وهم هم الألى بلغ بهم سليمان حدود العجم واسوار ڤينا ووصلت بهم الدولة الى المحيط الهندي والصحراء الكبرى . فالذي تغير وتبدل هو الدولة أو الكيان السياسي والاسم الجغرافي فاما العناصر المؤلف منها ذلك الكيان فعلى ما كانت عليه الا قليلاً بحسب ظروف الزمان والمكان وتأثير الاوساط والعوامل السياسية والاجتماعية

وانما يضيق الكاتب ذرعاً لان البحث أمر شاق . فعلل انحطاط الدولة مختلفة بين داخلية وخارجية واجتماعية وعمرانية وسياسية ودينية وجغرافية واقتصادية . وهذه الاسباب متداخلة لا ينفرد أحدها باضعاف قسم معين من بناء الدولة وليس تأثير كل سبب منها في ضعف الدولة كتأثير سبب آخر نوعاً وكمية كما أن القارىء يحسن به أن لا يتوهم أنه كان في مقدور أحد رفع كل هذه الاسباب . فمن أسباب الضعف ما كان قدراً مقدوراً تقضي به سنن الكون ونواميس الاجتماع ومن الاسباب

(١) المرحوم مصطفى كامل باشا (٢) المستر ديسي

ما جره العثمانيون على أنفسهم فكانوا كالباحث عن حتفه بظلفه

ويلاحظ في تاريخ انحطاط الدولة ثلاثة أمور :

(اولاً) ان جسم الدولة قد قوي على تحمل جميع الادواء التي انتابته من حروب وثورات وعبث حكام واختلال أحكام وتضافر أعداء وتراخي أصدقاء . فصدق فيها قول فؤاد باشا لنابليون الثالث يوم كان سفيراً في باريس « ان دولتنا أقوى دول الارض اذ تعاقب عليها قرنان ودول اوربا تهدم من بنائها الشاهق من الخارج ونحن نهدم من الداخل والبناء لا يزال قائماً »

(ثانياً) ان الانحطاط كان مستمراً منتظماً منذ عصر سليمان الى الآن ولا عبرة بتلك الفترات القصيرة التي كانت تنتعش فيها وتظهر بعض مجدها العسكري القديم لقيام بعض رجالها وسلاطينها آونة بعد أخرى يرتقون ويدعمون

(ثالثاً) ان بوادر الضعف وأسباب الانحطاط وان كانت ترجع الى عصر سليمان كما اشرنا الى ذلك فيما سبق الا أن الوهن لم يظهر على الدولة الا بعد مضي مدة من وفاة ذلك السلطان العظيم . نعم كانت الدولة امام الانظار قوية شامخة البناء فتية في الظاهر مع أن عوامل الضعف وأدواء الفناء تنخر فيها من الداخل فكان مثلها في ذلك مثل سليمان الحكيم وقد ظل بعد موته جالساً على عرشه متكئاً على عصاه وعليه ملابس العز والدولة وشارات الحكم والصولة والوحوش والطيور والانس والجن تتطلع اليه وقد ملأتها المهابة وأخذتها الروعة وهي تحسبه حياً قوياً ينشر الخوف والفزع فيمن حوله وما حوله حتى اذا أكلت الارضة عصاه التي كان يتكىء عليها وقعت جثته على الارض وعلمت الخلائق الحاضرة أنه فني وباد وكان من الهالكين وكانت قبل أن تأكل الارضة عصاه تحسبه حياً قوياً في حين انه كان ميتاً في صورة حي وفانياً في شكل قوي . واذ قد لاحظنا ما تقدم من الامور فلنذكر على سبيل الاجمال عوامل ضعفها وهي قسمان عوامل داخلية وعوامل خارجية

١ ـ العوامل الداخلية

(ا) اختلاف الاديان والاجناس : دل التاريخ وعلم الاختبار ان حكم الاجناس المختلفة والقوميات المتباينة والملل العديدة وحفظ النفوذ بينها يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما في ادارة شؤون الدول الاخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد

ودين واحد. لان نفوذ الاتراك المستمد من القوة العسكرية والذي تحكموا به في رقاب كثير من الشعوب الاجنبية المختلفة في كل شيء لم يكن ليدوم طويلا الا بعناية خاصة باعداد الجيش لكل طارىء مفاجيء من جهة وبارضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة من جهة اخرى

واعلم ان الفاتحين من آل عثمان اغفلوا بناء سلطتهم ونفوذهم على اوطد الاسس ولم يحملوا رعيتهم النصرانية المقهورة على الاسلام وانما اكتفوا منهم بدفع الجزية واستثمار الارض لهم. وجرى الحكام العثمانيون على سياسة شديدة الخطر على حياة الدولة وهي التسامح[1] المضر بمصلحة السيادة العثمانية ذلك التسامح الذي ادى بطول الزمن الى استقلال النصاري وخروجهم من احضان الدولة مع انهم كانوا متمسكين باهداب العمل وأسباب الارتقاء وساداتهم يحتقرونهم ولا يقيمون لهم وزناً. وكان من اكبر اسباب محافظتهم على قوميتهم وتولد الرغبة في الاستقلال والقدرة عليه انهم كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي التام في الشؤون الدينية والادارية وللسادة الترك الاشراف الاعلى والجزية. واجتمعت لهم مزايا اخرى خلاف تلك الميزة الاساسية وذلك انه لم يكد يحل نصف القرن السابع عشر الميلادي حتى كف السلاطين عن أخذ اطفال النصارى للدخول في صفوف خدمة الدولة الحربيين والملكيين واخذت الدولة ترقي اليونان في اعلى مناصبها من غير ان تحملهم على تغيير جنسيتهم ودينهم. وكان الترك يفتخرون بان يلقوا على عاتق مواليهم من اليونان النصارى مهمة مخاطبات الدول والحكومات في الامور السياسية الخارجية وفي القاء مقاليد الحكم والادارة اليهم في بعض الولايات والعمالات التابعة لتركيا. ففي سنة ١٦٦٠ شرع الترك يكلون المفاوضات والامور السياسية الخارجية الى نصارى الاروام فكان هؤلاء تراجمة[2] اسماً ولكنهم كانوا في الواقع وعلى الحقيقة بمثابة وزراء لوزارة الخارجية.

(١) معلوم أن سياسة التسامح التي جرى عليها سلاطين آل عثمان في عدم التعرض للغات الامم التي دخلت في حيازتهم كانت مع كل حسناتها سبباً في بقاء كل هذه الامم على غير تلاؤم واندماج واللغة التركية على كونها لغة الحكام كانت بحكم المجهول في بعض اجزاء السلطنة. والظاهر أنهم حاولوا بعض المحاولة تلافي ذلك التباعد اذ يروى عن السلطان سليم الاول انه على اثر فتح مصر ومبايعة المتوكل على الله العباسي له بالخلافة اراد ان يتخذ العربية لغة رسمية فلم يتسن له ذلك فلا ذاعت العربية ولا عمت التركية فبقيت كل امة منفردة بلغتها وليس لها ما يكفي من الالمام بلغة الدولة الحاكمة وحيث لا يحصل التفاهم لا يحكم الاندماج والتمازج

(٢) مثال ذلك ان احمد كبريلي عين من يدعى بانايوتي ترجماناً للدولة كما أن يونانياً آخر

كذلك كانت الدولة تجعل منهم حكاماً على الافلاق والبغدان ولا شك ان جماً غفيراً من نصارى اليونان كان يلتف حول اولئك الذين يشغلون منصب التراجمة او الحكام من ابناء جلدتهم وهكذا نشأ بحيّ الفنار من الاستانة على توالي الزمن نظام ارستقراطي عظيم من الاروام اعاد ذكرى ايام الدولة البيزنطية . وكان في هذا الحي الرومي مركز البطريرك او الزعيم الديني الذي أصبح مركزاً يلتف حوله الاروام وأصبح مقره بمثابة سراي الامبراطور البيزنطي القديم . ولا تسل عن مقدار المساعدات الثمينة التي امد بها بطريرك الفنار حركة الاستقلال اليوناني فانه بذل كل مرتخص وغال في سبيل نجاحها مادياً ومعنوياً (١)

وبذل اليونان كل جهد في جمع الثروة وحشد المال لعلمهم ان المال قوام الاعمال فاخذوا بزمام التجارة البحرية برضاء ساداتهم الترك وكان هؤلاء يرون في التجارة خسة وعاراً فتركوها لهم وتربعوا هم على كراسي الراحة والكسل والخمول مكتفين بالسيادة الواهية التي تزول في لمح البصر متى هبت عليها ريح النشاط والاجتهاد واتخذت الاهبة لزوالها والعدة لمناوئتها والتغلب عليها . وانت تعلم ان باليونان استعداداً فطرياً لركوب البحر والنجاح في التجارة . وساعدهم على الكسب والفلاح واتساع دائرة التجارة ان روسيا جعلتهم في حل من الدخول في رعويتها واستعمال راياتها وبنودها في سفائنهم وشملتهم في كل ثغر من ثغور الشرق الادنى بالرعاية والاكرام . وكذلك ادى امتناع ورود حاصلات اميركا الى اوربا بسبب حروب نابليون الى تزايد طلب التجارة عن طريق اليونان وثغور بحر الارخبيل فعظم الرزق لديهم وتوفر الخير عندهم . هذا الى ان الدولة العثمانية كانت تستخدم الاروام في سفائن اسطولها فلا بدع اذا خانوها وتألبوا عليها وخرجوا من خدمتها عند قيام اخوانهم يطلبون الاستقلال والانفصال . فانت ترى ان استقلال اليونان لم يكن الا بسبب تلك الاغلاط المتسلسلة

يدعى مافروكورداتو كان مندوباً عن تركيا في امضاء معاهدة كارلوفتس

(١) من احاديث نابليون الاول في سانت هيلانه عن سياسة الدول في الشرق الادنى قوله : « ان سلاطين العثمانيين قد ارتكبوا اعظم خطأ وجروا على اقبح سياسة تضر بمصالحهم وتقوض دعائم نفوذهم وذلك انهم تركوا جماعة عظيمة من المسيحيين مثل اليونان في مكان واحد وجعلوا كثرتهم العددية راجحة على كفة ساداتهم وانه لا بد ان يكون من وراء هذه السياسة الحمقاء اشأم النتائج على العثمانيين مما يؤول الى تقلص ظلهم وافلات رعاياهم المسيحيين من قبضة يدهم عاجلا او آجلا »

التي جرت عليها الدولة فلا بدع اذا انكمشت رقعتها وتقاص ظلها ودبت فيها أدواء الضعف في كل مكان من جسمها (١)

(ب) شكل الحكومة : كانت الى عهد قريب جداً حكومة استبدادية من نوع الحكم المطلق حيث يقبض رجل واحد على أزمة الامور وهو الحكم الذي الفه العالم منذ نشأته وله بلا ريب مزايا باهرة مع جهل الرعية وذكاء الراعي وعدله. وكم لنا في العهد القديم من مثل برجل واحد نهض بامة كانت قبله خاملة ولكن كم لنا من جهة اخرى من مثل برجل واحد اضمحلت على يده أمم شتى وامته منها. فلو ان حكومة الترك كانت نوعاً من الحكم المطلق العادل في سائر العصور والادوار لكان يكون تأخر الدولة ممتنعاً أو بطيئاً جداً . أما وقد كانت بعد عصر سليمان من النوع الاستبدادي الجائر الذي يبيح الموبقات ويستبيح المحرمات ويحكم الانذال برقاب الرجال وينكس الرؤوس ويذلل النفوس من غير مرشد الا التعنت عن هوى يميل به النفس الى حيث لا تدري ومن غير شرع ومن غير وازع بل يحلل اليوم ما يحرمه غداً يصادر الاموال بغير حساب ويبطش بالابرياء بغير عقاب ويفرق بين الناس اذا آنس نقمة منهم عليه فيثير فيهم ثائرة التعصب الذميم فضرب بعضهم ببعض حتى اذا غفلوا عن مظالمه حيناً ثم استفاقوا من غفلتهم ورجعوا الى التظلم منه خلق لهم ملهاة أخرى يلتهون بها عنه وتقتسم به فئة ضئيلة أموال الامة فتنعم بها وتشقى الامة ولا حرج على تلك الفئة ولا جناح . فلا عجب اذا عجزت الامة العثمانية عن الجري في مضمار التقدم والارتقاء وسقطت في مهواة الفوضى والشقاء لان سلاطين آل عثمان الاولين بعد أن نهضوا بالدولة الى ذروة المجد بما أوتوه من الذكاء والحذق خلف من بعدهم خلف أضاع الاملاك الشاسعة التي نالها الاجداد بحد السيف وحافظوا على كيانها بحسن الادارة ولم يكن للسلاطين الضعفاء همّ الا الانغماس في اللذات غير مكترثين بتضعضع ملكهم . وكان استبداد السلاطين استبداداً قبيحاً جائراً

(١) من هذه الاغلاط ايضاً ان الحكومة العثمانية جعلت على اليونان بوليساً منهم يقال له ارماتول كان لا شك يغض العين عن افعال عصاباتهم المسلحة التي كانت تهيء نفسها من زمان بعيد لتنظيم حركة الثورة والعصيان وطرح النير التركي من الاعناق . ومن هذه الاغلاط ايضاً ان الدولة العثمانية كانت تتمادى في التسامح او الاهمال حتى اذا سبق السيف العذل وفاتت الفرصة أرسلت على اليونان قوة لتأديبهم فترتكب من ضروب القسوة ما يكسب اليونان عطف النصارى قاطبة عليهم

سببه غفلة الامة وجهالتها وفساد بطائن السلاطين وحواشيهم وتقرب المداهنين المتملقين الذين لا يشق شغاف قلبهم الصلد عويل ايم ولا صراخ يتيم وهم حائلون بين الراعي والرعية وبايديهم سيف من النقمة مسلول على رؤوس الابرياء كما أن توارث العرش وتعاقب جلوس السلاطين عليه من غير مراعاة الكفاءة أو صوت الرأي العام مع سوء تأويل قوله تعالى « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » وكذا تداخل الجند في عزل السلاطين وتوليتهم حسب ما يروق في عين طمعهم وجشعهم من الاسباب التي يعزى اليها جلوس سلاطين من الطراز الخامل الضعيف أو السكير المستهتر أو الخائف المتردد اوالفاسق المغرور. نعم لو كان سلاطين آل عثمان بعد القرن السادس عشر الميلادي من المستبدين العادلين أصحاب الحذق والتدبير والكياسة والشجاعة والرأي الماضي ممن يسيرون باوامر الله وسنة رسوله الكريم لكان التاريخ العثماني الان على خلاف ما هو عليه لان السلطان في بلاد الشرق والاسلام هو الكل في الكل هو الدولة والدولة هو، هو الرأس ان فسد فسد الجسم وان صلح صلح البدن . ولو ان العثمانيين كانوا يختارون سلطانهم اختياراً ويقدمون الاكفاء من أمراء البيت العثماني لما شكوا ضعفاً وتأخراً واضمحلالاً . وكيف كان يمكن ان يستقيم الحال وقد كانت عادة السلاطين في الزمن السابق قتل اخوتهم ومن عساهم ينازعون اولادهم وراثة العرش ثم كفوا عن القتل وأخذوا يحبسونهم ويحجرون عليهم ففي الحالة الاولى يعدم ذكاء ويقبر عزم وحزم ما كان أجدره بالنهوض بالدولة الى العلياء والبلوغ بها اعلى درجات سلم الارتقاء وفي الحالة الثانية يحجب الامراء عن العالم فلا يكون لهم علم او تجربة فاذا صاروا سلاطين كانوا أشباحاً لا تعقل ولا تفقه شيئاً من فنون الحكم وأساليب الادارة ويصبحون تحت رحمة امرأة ذكية من نساء القصر أو خصي ماكر او وزير لئيم غادر. هذا ومما تنبغي الاشارة اليه ان الشريعة الاسلامية لم تذكر جزئيات النظام الحكومي الذي يسير عليه المسلمون وفي القرآن اشارات عامة في حقوق وواجبات الامام وحقوق وواجبات الرعية وقد تركت للناس حرية اختيار الانظمة التي تروقهم تبعاً لظروف الزمان والمكان. واستفاد سلاطين آل عثمان من جهل الرعية وغفلتها عن المطالبة بحقوقها التي بيّنها الكتاب الكريم فجعلوا يعبثون بالناس ويشرعون النظم التي تحفظ لهم نعمة الحكم وتستبقي لهم لذائذ الاستبداد . وكان من جملة ذلك حفظ حق الحكم لافراد اسرة معينة هي

اسرتهم من غير نظر الى الكفاءة دائماً كما قدمنا . ولما فتح السلطان سليم مصر وارغم الخليفة العباسي على التنازل له عن الخلافة الاسلامية زاد نفوذ البيت العثماني وقويت شوكته واكتسب روعة دينية واحتراماً قدسياً جعل مناقشته الحساب من الامور المتعذرة او النادرة فاوغل في الظلم حتى وصل الى حالة نفسانية كان يشعر معها بمثل ذلك الحق السماوي الذي كان يتمسك به ملوك انكلترة من آل استوارت

وقد جر جور السلاطين واستبدادهم بالامر سلسلة جرائم وسيئات كان لها الاثر الفعال في انكماش الدولة وانحطاط السلطنة ومن تلك الجرائم والسيئات أو العيوب والمخازي ما يأتي :

١ ان السلاطين كانوا يجرون على خطة الاسراف والتبذير فينفقون النفقات الطائلة ويقيمون القصور الباذخة ويركبون الخيول المطهمة والمركبات الفاخرة ويحشدون في مساكنهم جيشاً جراراً من الخدم والاماء والعبيد والخصيان من ذوي المخصصات العظيمة والرواتب الضخمة وكانوا لا يتركون وسيلة من وسائل البذخ والترف في مآكلهم ومشاربهم ومجالسهم ومنتدياتهم ومنتزهاتهم وظعنهم واقامتهم ولهوهم ولعبهم الا اتخذوها بما عجزت عن القيام به ايرادات الدولة .

٢ انهم كانوا يسندون وظائف الدولة المهمة الى رجال احسنوا صناعة التملق والمداهنة لاشخاص السلاطين او كانوا مقربين من محاظيهم ونسائهم . أليس من أعجب العجب ان السلطان سليمان نفسه رضخ لارادة احدى نسائه وقتل ولديه مصطفى وبايزيد ارضاء لها فآل الملك الى ولدها سليم وهو فاتحة شقاء العثمانيين . فاذا كانت ولاية العهد على جلالة قدرها وعظيم أهميتها يتصرف فيها السلاطين هذا التصرف المعيب فاحرى بما دونها من الوظائف ان يكون وقفاً على الرشوة والمحسوبية

٣ ان السلاطين حسبوا امتهم جيشاً ودولتهم معسكراً فلما أفلح منهم من أفلح في صناعة الحرب وفتحوا ما شاءوا من الاقاليم والبقاع أخلدوا الى الدعة والسكينة وانكمشوا في زوايا الكسل والملذات فصاروا فريسة الترف وما علموا ان الفتوحات السلمية ابقى من الفتوحات الحربية وان حسن الادارة وتنظيم المرافق عليه المعول في بقاء الدول . وانك لترى سلاطين العثمانيين بعد سليمان القانوني — الا قليلاً منهم — يدخلون في غمار الحروب ويعودون منها بالخسران المبين والخذلان المشين لا الى ديوان الحكومة حيث يدعمون بالاصلاحات السلمية ما خربته الحروب الخاسرة

بل الى مجالس الندماء وأحضان النساء

على أن الانصاف يقضي علينا بان نقول ان العالم كله من أقدم ازمنة التاريخ الى سنة حدوث الثورة الفرنسية الكبرى كان فريسة استبداد الملوك والامراء والسلاطين في آسيا واوربا وافريقية وكانت تلك الثورة الدموية العظيمة بمثابة زلزال عظيم قوض النظم السياسية والاجتماعية التي جرى عليها البشر من قديم الزمان ونسج الشعب العثماني في السنين الاخيرة على منوال الشعب الفرنسي وتعلم منه فكان من جراء ذلك الانقلاب الدستوري الاخير في الدولة التركية . فاسرة عثمان لم تنفرد في تاريخ العالم بالاستبداد ولم يكن الشعب العثماني هو الشعب الفذ الذي ذاق مرارة الاضطهاد وغضاضة الاستعباد والملوك مهما كان من سمو تعاليم دينهم لايقلعون عن حب الاستئثار بالسلطة والانفراد بالحكم المطلق الا اذا زلزلت قوة الشعوب أقدامهم وحملتهم على تحقيق مبادىء الاسلام أو تطبيق نظريات الفلاسفة الاعلام

ونكاد نخرج عن موضوع البحث اذا نحن اسهبنا في بيان التأثير السيء الذي يحدثه استبداد السلطان وجوره في اخلاق حاشيته خاصة والامة عامة . فالخوف والنفاق وحب ظلم الضعفاء كالمرأة والرقيق والتملق والكذب والخيانة وحب النساء والخمر والميسر (والناس على دين ملوكهم) كل ذلك من النتائج التي ينتجها الاستبداد الغاشم . ومن أراد المزيد من هذا البحث فليقرأ كتاب السيد عبد الرحمن الكواكبي في «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» انما يكفي هنا أن نقول ان انحطاط الاخلاق يقعد بالامة عن القيام باي عمل صالح

(ج) اهمال المرافق الاقتصادية : «كانت الدولة العثمانية الى وقت قريب بصرف النظر عن كل ما انفصل عنها لا تزال قابضة على صفوة خالصة من قارات اسيا واوربا وافريقيا ومساحتها عدا الولايات الممتازة مليوناً و ١٥٦ الف ميل مربع فاذا ضممت مساحة فرنسا الى مساحة المانيا الى مساحة انكلترة الى مساحة ايطاليا بلغ مجموع اتساع هذه الدول الاربع مجتمعات ٦٣٨٣٥٣ ميلا مربعاً اي ببعض زيادة على مساحة نصف السلطنة العثمانية .» فاذا كانت موارد الثروة الزراعية فيها ؟ الجواب على هذا السؤال يؤخذ من البحث في احوال العراق مثلا «فهو اقليم يشمل بلاد مابين النهرين ويمتد مما يلي ديار بكر جنوباً الى خليج العجم شمالاً ومن حدود بلاد ايران شرقاً الى حدود سوريا غرباً ويشمل ولايات الموصل وبغداد والبصرة وقسماً من ولاية ديار

بكر ويزيد عن فرنسا في مساحتـه ولا يفوقه في خصب تربته اقليم من اقاليم العالم كله يخترقه دجلة والفرات والزاب الاعلى والزاب الادنى وديالة وفيه شط العرب ملتقى النهرين وهو بحر فياض يغني بمـده وجزره عن وسائل الارواء . العراق اقليم قامت فيه بعواصمها أعظم دول العالم القديم من البابليين الى الاشوريين الى السلوقيين خلفاء الاسكندر الى الفرس الى فخر دول الاسلام الدولة العباسيـة بل هو القطر الذي آثره محمد علي باشا الكبير على مصر وما والاها ووقف هيرودوتس ابو التاريخ واجماً عن وصف تربته وخصبه خوف ان تنسب اليه المغالاة والكذب مهما خفف من الاطراء . هذا قطرمون سكان بابل القديمة البالغ عددهم ٢٥ مليوناً وفاض خيره عنهم فاصدروا حاصلاته مشحونة الى سائر البلاد وهو القطر الذي كان سواده أعظم موارد الثروة في الدولة العباسيـة التي ملكت اخصب البلاد وسادت أوسع الاقاليم . هذا اقليم تبددت سكانه وبارت أراضيه وان كانت لا تزال خصبة وفيرة المياه . وانما بارت اراضيه وقلت خيراته وهجرته سكانه لان سياسة الدولة العثمانية انصرفت عن نشر الامن وافشاء العدالة واحكام وسائل السقي وتمهيد طرق النقل واغراء الفلاحين بتعمير البلاد . نعم عجز العثمانيون عن اقتفاء أثر اهل بابل واشور والفرس والمتقدمين من الخلفاء العباسيين اذ قد توفرت الادلة الاثرية والتاريخية على أحكام أصول السقي والري وطرقه في بلاد العراق منذ القدم . وهذه آثار النهروان وسدوده وترعه تشير اشارة واضحة الى أنه كانت هناك مستودعات للمياه شبيهة بخزانات مصر تعاقب على انشائها من ذكرنا من الدول والشعوب السابقة كما أن الترعة العظيمة البـادية آثارها في صحراء قاحلة من السماوة الى ما بين البصرة والزبير الى خليج فارس والمعروفة الآن بنهر عمر من أعمال بعض الخلفاء العباسيين . وقد أهملت الحكومة العثمانية حتى زراعة الاراضي الخصبة بطبيعتها. قال أحد السياح : كان من الواجب مع هذا الخصب الغريب أن لا يهمل في تلك البقاع شبر بوراً ولكن الواقع بخلاف ذلك فاذا صعدت في شط العرب من مصبه عند الفاو الى البصرة ومنها الى القرنة عنـد ملتقى الفرات ودجلة على مسافة تقرب من المائتي كيلومتر ورأيت جنائن النخيل الباسقة متراصة على اكثر تلك المسافة من على كلتا الضفتين ولم تصعد الى دكة قبة الربان على ظهر الباخرة لترى ما وراء تلك الرياض خيل لك أنك في بلاد عامرة غاصة بالسكان . ولكن لو وقفت بك الباخرة على أحد الصوبية ونزلت منها متوغلا

بين تلك الجنائن علمت أن نظرك قد خدعك وأن النهار في اكثر تلك الاراضي لا يتجاوز الجرف الى أبعد من ميل الى ميلين وانك في بعض المواضع ترى الارض البور متصلة حتى الى ثغر النهر

« وما أعظم ما تكون دهشتك اذا علمت بعد ذلك أن جميع تلك الارض في غنى عن كل وسائل العلم والاختراع لخزن الماء لاروائها اذ يتناوب المد والجزر مرتين كل يوم وليلة في خليج العجم فينف ساعة المد في وجه مجرى المياه العذبة فتنقلب على عقبها مرتفعة فتملأ الترع والانهر المحفورة بين تلك الارض فتريها بلا نفقة ولا عناء على طول المسافة الى القرنة ولا تقف هناك بل تجاوز شط العرب الى مجرى كل من الفرات ودجلة على مسافة أميال

« فالارض التي تتناول الماء بتلك السهولة لا يبقى على صاحبها الا أن يفتح لها مجرى تسير فيه مهما طال واتسع ومع ذلك فهي على ما ذكرنا من ضيق النطاق وذهاب فائدة كل ما وراءه

« فاذا كانت تلك حالة الارض الغنية عن يد الصناعة لسقيها والمحيطة بمقر ولاية ليضمن حفظ الامن فيها فما تكون حالة ما سواها مما يحتاج الى خزن الماء أو مما توارى عن نظر الحكومة في الاطراف

« ومساحة أراضي العراق ١٢ مليون فدان أي أنها مضاعف الاراضي الزراعية في القطر المصري لكن تسعة ملايين فدان منها أمست قفاراً قاحلة ومليوني فدان ونصف مليون صارت مستنقعات وما بقي وهو نصف مليون فدان لا يزال يزرع اشجاراً وحبوباً مختلفة . والمطر قليل هناك لا يزيد متوسطه على عشرين سنتيمتراً في السنة والبلاد حارة فيتوقف خصبها على ما يمكن أن تروى به من نهريها الفرات ودجلة وهما كبيران جداً يبلغ ما يجري في الفرات زمن الفيضان ٤٠٠٠ متر مكعب في الثانية وفي دجلة ٦٠٠٠ متر مكعب وما يجري في كل منهما زمن التحاريق ٣٠٠ متر مكعب في الثانية من الزمان

« وقد فطنت الحكومة العثمانية أخيراً الى أهمية الزراعة في العراق وأقنعها السير وليم ولكوكس المهندس المشهور بضرورة القيام ببعض الاعمال التي بها يصلح الري وتزيد مساحة الاراضي الزراعية فاجابته الى بناء سد كبير من رأس الترعة الهندية الآخذة من الفرات لتحويل مياهه كلها الى مجراها الطبيعي القديم بدلاً من جريها

في الترعة الهندية حيث غمرت المياه جانباً كبيراً من الاراضي التي هناك فصار في الامكان رفع منسوب الماء في الفرات بواسطة هذه القناطر والحاجز الذي أمامها في فصل الصيف (ايام التحاريق) الى ست عشرة قدماً وست بوصات فتيسر بذلك ارواء بقاع كبيرة من أخصب الاراضي وأغناها تربة فتزهو بالزرع وتحفل بالضرع بعد ما اقفرت منها قروناً كثيرة » (عن المقتطف وسليمان البستاني)

ولم يقتصر اهمال الزراعة على العراق بل تعداه الى فلسطين والشام وآسيا الصغرى فكم من نهر ذهب ماؤه هدراً الى بحر أو بحيرة وكم من أرض لا تعوزها الا الايادي العاملة وكم من اقليم بقليل من العناية يكاد يدر لبناً وعسلا

والخيرات المعدنية على كثرتها وتنوعها في بلاد الدولة اهمل أمرها اهمالاً شائناً لا يكاد يفوقه الا اهمال شأن الزراعة . فالفحم الحجري وهو من أعظم أركان الثروة موجود في قسمي اوربا واسيا مما بذلت بعض الهمة في استخراجه كمعادن هرکلي ومما لايزال مهملا كمناجم مندلي في ولاية بغداد ومعادن الكروم والرصاص الفضي تستخرج بقلة من الولايات الاوربية ومثلها معادن الحمر في الاراضي السنية بسوريا والنحاس في ارغني بولاية ديار بكر وفي مواضع كثيرة معادن ظاهرة وتوشك أن تكون مهملة كل الاهمال ومنها الذهب والفضة والانتيمون والزرنيخ والسنباذج والزئبق والمغنيس والحديد والقار الحجري والسائل والكبريت والبورق ومقالع الرخام على اختلاف أنواعه والبترول بضواحي الاسكندرونة وولاية بغداد والموصل فضلاً عن المياه المعدنية الحارة والباردة والملاحات البرية والبحرية والحراج والغابات التي باد معظمها والباقي منها في قسطموني وكيليكيا يفوق مثيله في اوربا

ولم تكن الصناعة باحسن حالاً من الزراعة ولم تعن بها الحكومة العثمانية العناية اللائقة بها مع ان في بلاد الدولة منشأ كثير من الصناعات القديمة التي بادت كصناعة الزجاج والقرمز في فينيقيا والنحت والحفر وصناعة التماثيل في جزر الارخبيل والرسم وما لحق به من نتاج الفنون الجميلة في القسطنطينية وما والاها من البلاد . وكان آخر هذه الصناعات عهداً بالاضمحلال صناعة القاشاني البديعة في دمشق الشام ومع وجود كثير من الصناعات الخاصة ببعض البلاد فلا يصدر من المصنوعات العثمانية الى اوربا غير السجاجيد من ازمير والكهرباء من الاستانة والصدف المنقوش من بيت لحم . وأعجب من العجب ان في اوربا مصنوعات كثيرة مما لا يستعمل فيها وانما يصنع فيها

ليرسل الى بلاد السلطنة العثمانية كزجاج الزاجيل والطرابيش وربما أخذت مادة المصنوعات من بلاد الدولة وأدخلت معامل اوربا وعادت منها الى بلاد الدولة مصنوعة وثمنها أضعاف مضاعفة وسبب هذا جهل الناس وفساد سياسة الحكومة السابقة التي لم تنهض بالصناعة قليلاً أوكثيراً مع وجود مواد الصناعة ومعداتها متوفرة ووجود العامل الحاذق النشيط والفحم الحجري ومنتجات القوة المتفرقة في انحاء البلاد من منحدرات الانهار الكبيرة الى شلالات الانهار الصغيرة التي تولد الكهرباء بقوة الوف الاحصنة ومع وجود أحسن المواد اللازمة لمعامل الحديد والخشب والزجاج حتى بناء السفن هذا فضلاً عن الحرير والصوف والقطن والكتان والمعادن

وقد كان من المنتظر ان يكون للتجارة في البلاد العثمانية شأن اعظم من شأنها لموقع السلطنة في ملتقى قارات العالم القديم الثلاث وبما لها من الثغور والمرافىء الكثيرة على سواحلها الطويلة المشرفة على أهم واعظم بحار العالم وبما لسكانها من يونان وشوام وعرب من الشهرة التجارية القوية والحذق المالي الموروث وما فيهم من حب السفر والمخاطرة وما في البلاد من خيرات معدنية وزراعية. ولكن ابى الكسل أو الاهمال الا أن يلفح التجارة بريحه السامة فذوى غصنها ويبس عودها لفساد طرق المواصلات ووعورة السبل وفقدان الامن وانتشار الظلم وقلة السفن التي تمخر الانهار وتعبر البحار مما يكون ملكاً للوطنيين. هذا الى قلة السكك الحديدية التي عليها مدار الثروة وقوام العمران

ولو كانت الحكومة العثمانية نشطت الى ربط البلاد بالسكك الحديدية الكثيرة لخففت وطأة الكساد الذي غشا بلادها بانشاء قناة السويس وتحويل تجارة أوربا الى مصر والبحر الاحمر ولامكنها نقل الحاصلات الزراعية الزائدة من جوف السلطنة الى ثغورها وبيعها والانتفاع بثمنها بل لامكنها اسعاف البلاد المنكوبة بالمجاعة بالاقوات على جناح السرعة. لو أن الحكومة العثمانية غطت بلادها بشبكة من السكك الحديدية لاوقفت تيار المهاجرة بنشر أسباب اليسر والثراء بين الناس (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

(د) التأخر العلمي : عمدة الدول في ارتقاء سلم العلياء العلم . هو السلاح الذي عليه المعول في التفوق على الاقران ومغالبة الزمان . ما هيض جناح امة خفقت على

ربوعها راية العلم وما تعثر شعب اتخذ العرفان متكأ . بالعلم ركب الناس متون الهواء وبقروا بطن الارض وغاصوا لجة الماء فانكشفت لهم خيرات وبانت لهم كنوز سخروها في منافعهم واستخدموها على طرائق شتى . بالعلم صار الانسان مخلوقاً مخيفاً وكائناً رهيباً لا يكاد يعترضه في سبيل امانيه عارض . ماذا أصاب العثمانيون من العلم ؟ شيء قليل دون ما يرتجي الصديق ويكبت العدو . لو انهم أصابوا منه حظاً وافراً لكانوا شعباً عزيزاً فوق دس الدساسين وكيد الاعداء . اذن لكان لحمهم مراً لا يزدرد . وعودهم صلباً لا يهصر . لو كان العلم حاضر أمرهم في حروبهم لجعل من حميتهم وبسالتهم وشجاعتهم الفطرية قوة لا تقهر ولو خرجت اوربا كلها للقائها . ولو انهم اهتدوا بهديه في فترات السلم لوحد الغايات وانف بين القلوب وحمل الناس على المضي متحدين في طريق كل عمل صالح . اذن لما رأيت العثمانيين جميعاً وقلوبهم شتى . اذن لكان سير الحوادث البشرية في غير مجراها الحالي

غير ان المستبد يستمرىء جهالة الرعية . لا يريد للناس علماً به يتذوقون طعم الحرية ويتشككون في صواب بقائهم على الخضوع له طويلاً ثم يسعون اليه يقلقون راحته ويناقشونه الحساب . اسمع ما يقوله رجل من اخلص العثمانيين العرب عن التعليم في بلاد الدولة « اختلت بشدة المراقبة فابعد منها كثير من المطالب المفيدة ابعاد المنفيين الى فزان حتى لقد حرم على الطلبة درس المهم في التاريخ ولو كان تاريخ بلادهم وشوهت جغرافية البلاد العثمانية وخرائطها فحذف وبدل منها من الاسماء ما طالما افتخر سلاطين آل عثمان بدخوله في حيازتهم وحظر تعليم بل قراءة العلوم الفلسفية والاجتماعية ومنع الاساتذة من القاء أي شرح مفيد على الطلبة حتى حار المعلمون في أمرهم وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية او حسابية صرفاً يخشون أن توجس منهم اشارة الى عدد يوافق اعداد سني الظلم أو فتحة او كسرة تشيران الى فتح الاعين وكسر القيود كل ذلك خشية من أن ينبثق نور العلم في أدمغة التلامذة فيعلمون انهم من بني الانسان وان لامتهم حقوقاً تجب المطالبة بها »

واعتبر قوله في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية :

« بقي لنا كلمة في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية . اما الاولى ونعني بها التي شادها أهل البلاد فهي قليلة لم يكن يرجى منها النفع المقصود مع شدة اعتناء اصحابها بها لان اكثرها تحت أحكام هذه المراقبة الجائرة . وأما المدارس الاجنبية فهي التي

كانت متمتعة بحرية حرمت على ما سواها ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال وبثت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا ولكن مع اعترافنا بجزيل ما ثقفت وأفادت لا يسعنا الا القول جهاراً أن فيها ثلمة متسعة لا يمكن سدها الا بتغيير الاحكام . فمن من أرباب تلك المدارس على فضله يهتم ببث روح الوطنية بين تلامذته بل من منهم وهم منتمون لامم متناظرة لا يسعى جهد طاقته في استمالة تلامذته الى امته ودولته وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » . ووصف المرحوم ولي الدين بك يكن في الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول عمل مجلس المعارف الاعلى بالاستانة وكان قد تعين فيه عضواً :

« وبينما نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لي انه أحد كتاب قلم المجلس قد زرر سترته ادباً وأمسك اوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هي على يسار الرئيس فوضع عليها الاوراق ووقف ينتظر الامر فقال راسخ افندي « الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغي أن تنظر فيه من الاوراق فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى فاذا رآها على ما يجب وافق عليها واذا رأى موضعاً للاعتراض اعترض . » فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وانا اسمعه وأتأمل حال الاعضاء فرأيت واحداً يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثاً وآخر يكتب كتاباً وثالثاً يأكل الحمص ورابعاً اثقل النعاس هامته وخامساً يقرأ جريدة في يده واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانىء

كأن اروسهم والنوم واضعها على المناكب لم تخلق باعناق

فهالني ما رأيت حتى خيل اليَّ أني بين جماعة من ابناء السبيل نزلوا بدار مطعم وأقاموا ينتظرون غذاءهم واستمعت ما يتلو الكاتب فاذا هو استئذان من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لاصلاح أنابيب المياه في مدرسة من مدارس البنات لا يحضرني اسمها فلما انتهى الكاتب من التلاوة وشرح الرئيس للاعضاء مجمل ما تلاه قال أحدهم — فليكن

آخر — لا . لا يكون أبداً

ثالث — ولمَ لا يكون

رابع — نعم صدق فلان . هذا لا يكون أبداً

خامس ـ أنت لا تدري من هذه الامور شيئاً . تكلم فيما تدريه ولا تشغلنا بهذرك هذا

سادس ـ أرجو ان لا يطول هذا الجدال والا اضطررنا الى الدخول معكم فيما لا نريد

الرئيس ـ كفى كفى. يظهر لي انكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش الجميع وفيهم المخالفون ـ نعم نعم كلنا نوافق

فوالله ما رأيت مشهداً هو أنفى لصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناي فيالك من مبرك ابل انا احد أزواده . فعاودني هنالك شيطاني ونفخ في اذني نفخته فقلت لمعمم كان باركاً الى جانبي

ـ ما قدر ميزانية المعارف

ـ لا أدري

ـ كيف لا تدري ثم تواقق على احتساب مبلغ منها

ـ وما يعنينا نحن من ذلك. لينظر في الامر من هم فوقنا. وماجيء بنا هنا لنحاسب الناس على كل ما يقولون . انا أحب أن لا أتعدى ما رسم لي . وأنت جئت اليوم فلا تدري من اعمال المعارف شيئاً فاولى لك أن لا تعجل في الرأي وان لا تكشف مقاتلك لحاسديك

قلت وهذه فائدة استفدتها وقد ذهبت هيبة المجلس من عيني وايقنت ان هذا البناء الذي يظل رجال العلم في الامبراطورية العثمانية لا يوآوي الا اناساً هم نخبة جهلائها فاشفقت على وطني وتمنيت ان لا اعيش حتى أشهد مصرعه »

(ه) ضعف الجيش والاسطول : قضت سنة الكون ونواميس الاجتماع ان يكون الغلب والبقاء للاصلح سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو انساناً أو حكومة أو دولة أو نظاماً اجتماعياً أو تشريعياً . القوي يبقى والضعيف المجرد عن وسائل المقاومة يبيد ويتلاشى . عرف الناس من قديم الزمان وسالف الحقب ان بعضهم طامع في البعض الآخر وانه لا بد من سلاح به يدفع عدوان القوي ويؤخذ ما بايدي الضعيف فاستحدثوا نظام الجيوش وجعلوه عدة لدفع الاعداء واستكثار الرزق بفتح الاقاليم وغزو الامصار

وكانت الدولة العثمانية أول دولة عرفها التاريخ الحديث اقامت جيشاً عظيماً فرت

به في احشاء البلاد وفتحت به من الاقاليم ما اشتهت وطاب لها . نعم كان جيش الانكشارية وما لحق به مخلب الدولة ونابها وحارسها وسياجها . كان ذلك ايام كان الاخلاص رائده وعز الدولة غايته ورفعة الدين والملة مقصده ومطلبه ورضاء السلطان والعبودية له أمنيته . فلما اتسعت رقعة الفتوحات واترعت خزائن الدولة بالمال واصاب العثمانيون عزاً وجاهاً ودانت لهم اخصب الاقاليم واغنى البقاع تاه الانكشارية في بيداء الغرور والكبرياء وعلموا انهم أصل الصولة وأصحاب الدولة وبناة المجد ورافعو لواء السؤدد فتدخلوا فيما لم يكن لهم فيه شأن وصاروا يعزلون السلطان ويولون غيره حسب أهوائهم . واذا كان السلطان من صنائعهم فاولى بمن دونه رتبة ومن هم أقل منه درجة من رجال الدولة وعمال الحكومة ان يعنوا لهم ويخافوا بطشهم وانك لتجد تاريخ الدولة العثمانية من عهد سليمان وقبل سليمان الى عهد قريب تاريخ حكومة اعجزها غرور الجندية وارهقها عناد العسكرية حتى اذا بلغ السيل الزبى ولم يطق الناس صبراً اتيح للسلطان محمود الثاني ان يستأصل شأفتهم ويقطع دابرهم على نحو ما تراه مبسوطاً في غير هذا المكان من كتابنا هذا

على أن السلطان محموداً كان في زمن قد كثرت فيه الاحن والمحن وكشرت له النوائب عن نابها من كل جانب فقد ثار اليونان وتمردوا وشقوا عصا الطاعة وطمع فيه ولاة من صنيعته وخرجوا عليه وارادوا الاستبداد بما تحت ايديهم من الامصار والاقاليم وظهرت مذاهب دينية وفرق وشيع وبدت أهواء ومطامع وهبت بسفينة الدولة اعاصير وزعازع وهي في بحر خضم من الفوضى والاضطراب فكانت الحاجة ماسة الى جيش قوي يعيد الامن الى نصابه ويستنزل العصاة من معاقلهم ويرد كيد الثائرين في نحرهم وهذا ما لم تجد به الاقدار على السلطان محمود فقد اباد الانكشارية ولكنه لم يجد بدلهم قوة ذات بال يعتمد عليها . وقيض للسلطان عبد المجيد ووزيره الامين رشيد باشا ان يرفعا بناء الجيش الحديث الذي وضع الساطانان سليم الثالث الشهيد ومحمود الثاني المصلح قواعده على النمط الاوربي الحديث وتابعهما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني الذي استعان بصداقة الامبراطور وليم الثاني على ادخال النظام والسلاح الالماني على الجيش التركي وقد تم له ذلك بقدر ما سمح دخل الدولة وشاءت همة رجالها الكبراء . واستفاد الالمان من الدولة فوائد اقتصادية جمة وافادوها فائدة تذكر بالشكر والثناء حتى صار الجيش العثماني نواة لجيش كبير مخيف يكون في مستقبل

الايام ان شاء الله عدة الدولة في استرجاع مجدها الغابر

وهاك وصف الجيش القديم قبل وفاة سليم الثالث(١٨٠٧) : « كان الباب العالي يستطيع أن يحشد ٣٠٠٠٠٠ من المشاة والفرسان اذا دعا داعي الحرب فاذا حمي وطيسها اذن مؤذن في الناس فتطوعوا وملأوا ما عسى أن يحدث في صفوف الجيش من الفراغ. على أن الجيش الاصلي ومن وافاه من المتطوعين كان همجاً واخلاطاً عديمة النظام والتجربة حديثة عهد بالخدمة العسكرية وقلّ منهم من قيد اسمه في السجلات قبل ستة أشهر واذا اصابهم انكسار أو رأوا مكروهاً او آنسوا كرباً لم يظهروا صبراً أو جلداً بل تفرقوا وهاموا على وجوههم هاربين لا يلوون على شيء ويمعنون في الناس في طريق عودتهم سلباً ونهباً سواء كانوا في منطقة مصافية أو معادية اسلامية أو نصرانية. والتركي خصم عنيد وبطل صنديد اذا قاتل معتصماً بقلعة أو خندق أو دخل معمعة غير نظامية على أرض وعرة وكثيراً ما روعت الاوربيين حملة الفرسان الترك اذ يقبلون كصاعقة شديدة تنقض فتنخلع لها القلوب وترتعد لهولها الفرائص . على أن الجيش التركي اذا قورن بجيوش أوربا ذات الحركات المنظمة والحيل البديعة كان كما قال نابليون جماعة من همج آسيا ولم يكن أي قسم من الفرسان أو المشاة يعلم لاستعمال الاسلحة نظاماً أو يعرف لها قانوناً ولم يكن يمرن على العمل الاجتماعي الذي تقضي به أبسط الضرورات الحربية فكان كل عسكري يتقلد من السلاح ما شاء ويقاتل العدو وفق ما يريد ويختار . وقد وصف الجنرال بوير الفرنسي الجيش التركي بانه معدوم النظام والثبات عاجز عن السير صفوفاً يفاجىء العدو مفاجأة همجية حادة مشوشة

« ومما زاد النظام فساداً والامر اختلاطاً ان ولاة الامور كانوا يكافئون الاجناد بقدر ما أصابوا من رؤوس القتلى فكان همّ الجنود قبل أن يستكملوا الانتصار أن يتفرقوا في أطراف الميدان يبحثون عن رؤوس القتلى ليحملوها الى فسطاط القائد حيث ينالون الاجر والجزاء كل بقدر ما أصاب من الرؤوس . وكان حال الاسطول شراً من حال الجيش وذهب سعي الغازي حسن والقبطان باشا حسين الذي خلفه في اصلاح الاسطول سدى »

وقد كان ضعف الاسطول العثماني بعد موقعة لبنتو اكبر الضربات التي اصيب بها جسم الدولة ومن أعظم علل تأخرها وانحطاطها . ومن يقابل بين اسطول الدولة أيام السلطان سليمان واسطولها أيام استقلال اليونان لا يسعه الا التأسف

والتحسر على ما جره العثمانيون على دولتهم وامتهم باهمالهم . فلم يكفهم انهم وقفوا به عند نمط واحد من المراكب الخشبيـة الضخمة الثقيلة بل اهملوا امره وتركوه للاروام من رعاياهم . فلما كانت حرب الاستقلال اليوناني عطف بحارة الاسطول العثماني على أبناء جلدتهم وأولاد عمومتهم فهجروه هجراً أو أساءوا الخدمة ولم يخلصوا العمل. ومن العجيب ان الدولة العثمانية قد ملكت سواحل طويلة جداً ذات مرافىء عديدة جميـلة على جملة بحور . فالبحر الاسود والبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وبحر الارخبيل وبحر الشام والبحر الاحمر كانت في قبضة يدها ويعتو لها من النـاس من عرفوا بحب المخاطرة واشتهروا بحسن ركوب البحر ومهروا في امتطاء صهوته من زمان قديم وغابات لبنان واحراج الاناضول كفيلة بتموين الاسطول بالخشب الصلب الجيد الـكثير . فكان من المعقول بعد ذلك ان تحافظ الدولة على كرامة اسطولها لا سيما واوربا قارة لا عز لها الا بالبحر هو قوتها وهو عمادها وهو مصدر ثروتها وهي عدوة الدولة العثمانية تضمر لها الشر فكان حقاً على الدولة أن تعتقد أنه لا يفل الحديد الا الحديد وانه لا بقاء لها بين دول اوربا البحرية الا اذا كانت لها المنزلة البحرية الرهيبة

وقد فطنت الدولة العثمانية أخيراً الى ضرورة الاستعانة بضبـاط الاسطول الانكليزي على اصلاح اسطولها ولـكن سبق السيف العذل اذ يحتاج ساحل الاناضول وحده الى اسطول كبير قوي يحميه من عدوان اليونان وليس تدبير ذلك في مقدور الترك الآن

هذا ما عنّ لنا من علل انحطاط الدولة وكلها علل داخلية ويزيد بعض الباحثين عليها الامتيازات الاجنبية وعصيان بعض الولاة وتراكم الديون وخيانة القواد ورجال الحـكومة واهتمام تركيا بالقسم الاوربي الى غير ذلك من الامور الثانوية

٢ — العوامل الخارجية

اما العلل الخارجية فتنحصر في ظهور الروسيا والنمسا بمظهر العدوان ومظاهرة أو معاندة اوربا لهما مدفوعة بعامل العصبية الجنسية او المصلحة المادية

« قد زعم البعض أن الدول الاوربية تريد بالدولة العلية ودولة ايران شراً لانها مسيحية وهما اسلاميتان ولا أبعد عن الحقيقة من هذا الزعم لان محور حركات الدول الاوربية الماليون واكثرهم من الاسرائيليين لا من المسيحيين ولان اكبر الدول الاوربية المسيحية نصرت الدولة العلية على روسيا وقت حرب القرم بالمال والرجال

كما لا يخفى ووطأها بعضها على بعض أشد من وطأتها على الدول الاسلامية فقد اجتاحت مملكة بولونيا المسيحية واقتسمتها وحاربت المانيا فرنسا حرباً لم يشهد التاريخ مثلها وامتلكت جانباً منها وحاربت النمسا قبل ذلك وهي صديقتها الآن واثارت فرنسا الحرب على كل دول أوربا المسيحية في عهد بونابرت ولو حالفته تركيا لاكتفى بمحالفتها واثارت انكلترا الحرب على جمهورية الترنسفال المسيحية وامتلكتها وعضدت اليابان الوثنية في حربها مع روسيا المسيحية. وقد تدعي الدول أحياناً ان الدافع لها الى الحرب أمر ديني كما ادعت روسيا وقت حرب القرم وكما ادعت دول البلقان ولكن هذه الدعوى لم تثبت على نار الامتحان فقد اختلفت دول البلقان واخذ بعضها بخناق بعض وقد يحالف احداها تركيا على محاربة الاخرى ومن المحتمل ان الدين كان من جملة الدوافع للحروب الصليبية الاولى ولكنه لم يكن الدافع الوحيد ولا الدافع الاقوى واذا قلنا ان المصالح المادية هي المحور الوحيد الذي تدور عليه سياسات الدول لا نخطىء.» (عن المقتطف بتصرف)

موجز تاريخ تركيا

من قيام عثمان الى آخر عهد سليمان

كان الاتراك العثمانيون عشيرة صغيرة من قبيلة اغوز ألجأتها غارة المغول الى مغادرة مواطنها بخراسان والاعتصام بآسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . وقد أجاز السلطان السلجوقي لافرادها رعي أغنامهم في الاقليم الذي كان يعرف قديماً باسم فريجيا ابكنتوس على حدود الاقليم البوزنطي المعروف باسم بثنيا واتخذوا مدينة سوجوت (تابسيون) حاضرة لهم . وكانوا في حمى سلطان السلاجقة مكافأة لهم على ما قدموه اليه من المعونة الثمينة . وولد عثمان في سوجوت سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وهو رأس الاسرة السلطانية التي أنجبت ٣٥ سلطاناً من عصبة ذكر واحدة وفعل عثمان فيما فعل ازاحة الحدود البوزنطية الى الغرب. أما أورخان ابنه فانه استولى على بروسه ونيقة وأدمج اقليم كره سي في أملاك العثمانيين وأنشأ فرقة الجند الجديد يني تشري (الانكشارية) التي كانت زهرة الجيوش العثمانية الغازية المظفرة قروناً عديدة . وفي سنة ١٣٥٨ م (٧٥٩ هـ) عبر الاتراك مضيق الدردنيل وجعلوا في غاليبولي حامية منهم وشرعوا في اكتساح الاقاليم الاوربية التابعة لدولة الروم الشرقية (البوزنطية) فسقطت أدرنه وفيلبه في أيديهم في سنوات قليلة . وبانتصارهم على أشجع فرسان أوربا على ضفاف المريتزا (١٣٦٤) وفي سهول قوصوه (١٣٨٩) تأيد امتلاكهم لاقاليم شبه جزيرة البلقان كلها الا مدينة القسطنطينية وما حولها . ونجت عاصمة الامبراطورية الشرقية مؤقتاً باغارة تيمور التتري على املاك العثمانيين في آسيا الصغرى . وبانتصاره انتصاراً باهراً على سلطانهم بايزيد الاول في موقعة انقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ م (٨٠٤ هـ) ظهر كأن الدولة التي امتدت من نهر العاصي الى نهر الطونة على شفا الخراب والدمار بضربة واحدة . على أن الله سبحانه وتعالى نظر اليها نظرة وقيض لها السلطان محمد الاول چلبي فلم الشعث وجمع المتفرق وأحكم النظام بحكمته التي لا يختلف فيها اثنان . فبعد انقضاء فترة سلم وسكون مضت في عمل الاعمال السلمية المفيدة استطاع مراد الثاني أن ينقذ السلطنة من غارة هنيادي (بطل الافلاق الابيض)

وينتقم من اهل أوربا الذين نقضوا عهود المحالفة باتصاره في وارنة سنة ١٤٤٤ انتصاراً باهراً على جيوش الاوربيين الذين كانوا قد اجتمعوا لقتاله قتالاً دينياً . وكان انتصاره بحيث أمن على بلاده من جهة الشمال وبحيث تفرغ العثمانيون لاحراز سلسلة انتصارات باهرة مدة القرنين التاليين . وفتح محمدالثاني القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وزالت بسقوطها في يد الاتراك العثمانيين البقية الباقية من الامبراطورية الشرقية . واستلحقت بلاد القرم سنة ١٤٧٥ وأصبحت جزائر بحر الارخبيل ملكاً

السلطان سليمان الكبير

للعثمانيين وخفق العلم العثماني على قلعة أوترانتو في ايطاليا نفسها . واستطاع سليم الاول في مدة حكمه القصير التي لم تكن لتزيد عن ثماني سنوات أن يقهر شاه الفرس وأضاف الى السلطنة العثمانية اقليمي كردستان وديار بكر كما انه استولى أيضاً على الشام ومصر وبلاد العرب وانتزعها من أيدي المماليك سنة ١٥١٧ ولم يكفه انه أصبح سيد البلاد المقدسة (مكة والمدينة) بل تسلم ايضاً من آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة الآثار النبوية الشريفة وحق الوراثة في الخلافة الاسلامية

وكسف السلطان سليمان أعمال ابيه سليم الاول بما قام به من الاعمال الباهرة الخالدة العظيمة . ففي سنة ١٥٢٢ طرد فرسان رودس من مكامنهم التلصصية فيها. أما

في الشمال فقد استولى على بلغراد ثم انتصر على فرسان المجر في موقعة موهكس سنة ١٥٢٦ انتصاراً باهراً جداً وقتل ملكهم لويس الثاني و ٢٠ الفاً من جنده وأصبحت بلاد المجر عمالة عثمانية مدة قرن ونصف . وحاصر سليمان فينا سنة ١٥٢٩ ومع انه لم يستطع قهرها الا انه ارغم الارشيدوق فرديننند على دفع الجزية . وليس استحقاق سليمان لقب الاكبر مبنياً فقط على اشتهاره بالحكمة وحسن الرأي مع انتصاره انتصارات باهرة متعاقبة عديدة بل على انه كان سيد اوربا ومقدم ملوكها .

بربروسه القائد العثماني

ففي الوقت الذي بلغ فيه شارل الاول قمة المجد والقوة استطاع سليمان اضافة بلاد المجر الى املاكه الواسعة وفي عصر الاساطيل الاوربية القوية عصر امراء البحر العظام مثل دوريا ودريك اكتسحت أساطيله شطوط بحر الروم وجزائره الى سواحل اسبانيا ونشر رجاله مثل بربروسه ودراغوت وبياله الخوف والفزع على سواحل اوربا وشمال افريقية وطردوا الاسبان من بلاد الجزائر وقهر العثمانيون سفائن البابا والامبراطور والدوج التي اتحدت على قتالهم في موقعة بريفيزة البحرية سنة ١٥٣٨ وكانت املاك سليمان تمتد من بودابست على الطونة الى اسوان على شلالات النيل ومن الفرات الى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق)

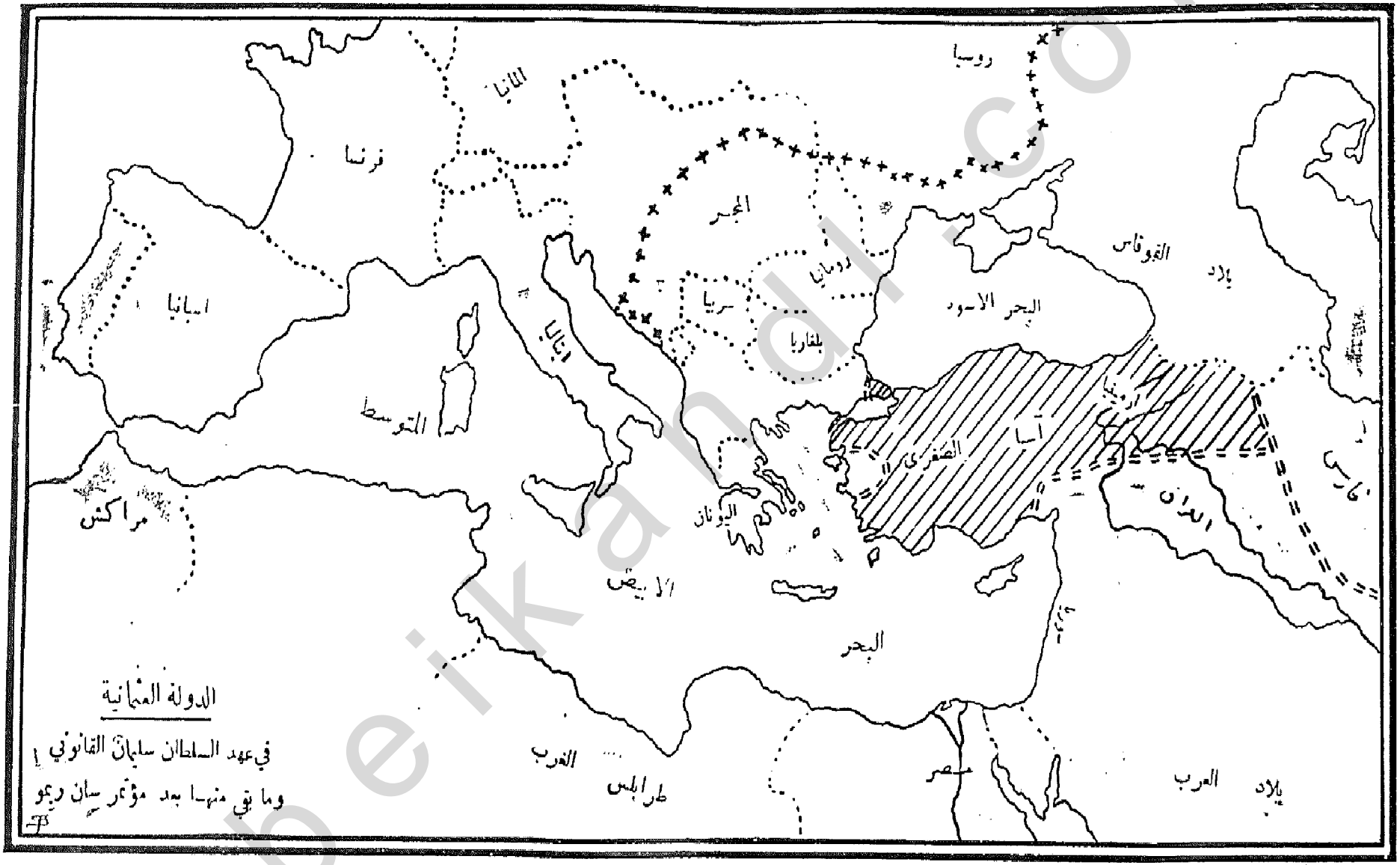

الدولة العثمانية

في عهد السلطان سليمان القانوني ١

وما بقي منها بعد مؤتمر سان ريمو